



بعثة الحاج محمد تميم إلى فرنسا (1681-1682م)

ظروفها مجرياتها ونتائجها

Hajj Mehammed Tamim mission to France (1681-1682)
Its circumstances, its course and its conséquences

د/ جمال سهيل¹

جامعة غرداية، souhilsoda@gmail.com¹

تاريخ القبول: 2021/12/21

تاريخ الاستلام: 2021/02/11

Abstract:

The article deals with one of the most important diplomatic missions of Morocco to France. In 1681 AD, the Moroccan Sultan Ismail sent a diplomatic mission led by Hajj Mehammed Tamim to the court of the French King Louis XIV for negotiations on the issue of prisoners, and the pending issue of piracy between the two countries, with an examination of its merits and repercussions. International, in a sensitive stage known to the Mediterranean on its northern and southern banks

Keywords: Morocco. France. Mehammed Tamim. Diplomacy. Moulay Ismail.

الملخص:

يعالج المقال إحدى أهم بعثات المغرب الأقصى الدبلوماسية إلى فرنسا، حيث أرسل السلطان المغربي إسماعيل سنة 1681م، بعثة دبلوماسية بقيادة الحاج محمد تميم إلى بلاط الملك الفرنسي لويس الرابع عشر من أجل المفاوضات حول قضية الأسرى، ومسألة القرصنة العالقة بين البلدين، مع البحث في حيثياتها وانعكاساتها الدولية، في مرحلة حساسية عرفها البحر المتوسط بصفته الشمالية والجنوبية.

الكلمات الدالة: المغرب، فرنسا، محمد تميم، الدبلوماسية، مولاي إسماعيل.

المقدمة:

مرت علاقات المغرب الخارجية بتقلبات عديدة، عكست واقع العلاقات الدولية آنذاك، وواقع ومكانة المخزن الدولية والمحلية. ونتج عن هذه العلاقات توقيع عدة اتفاقيات بين المغرب والدول الأجنبية شكّلت كلها إطارا لامتيازات أجنبية في المغرب، جسدت سلسلة التنازلات التي كان يقدمها المخزن لهذه الدولة أو تلك، في إطار معاهدات الصداقة والتجارة، أو تسوية الخلافات السياسية الناجمة عن الاصطدام المسلح، بسبب الأطماع الأجنبية في المغرب، لذا أرسل سلاطين المغرب مبعوثين دبلوماسيين يمثلونهم في إطار السياسة الخارجية.

وفي عهد الدولة العلوية، وبالذات في عهد السلطان المولى إسماعيل (1082هـ/1672م-1139هـ/1727م)، كثفت فرنسا من مبعوثها إلى المغرب لكن دون التمكن من إحراز تقدم في قضية الأسرى، لذا أرسل الحاج محمد تميم⁽¹⁾ في واحدة من أهم البعثات المغربية⁽²⁾ إلى بلاط لويس الرابع عشر في شتاء سنة 1681م، من



قبل السلطان المولى إسماعيل؛ من أجل تسوية مسألة الأسرى، والتجارة، والقرصنة. وسأحاول إيجاز هذا المقال فيما يلي:

1- التعريف بالسفير.

2- الظروف الممهدة لبعثة محمد تميم.

3- الوفد المكون للبعثة.

4- الظروف المرافقة لهذه البعثة.

5- مجريات البعثة.

6- نتائج البعثة.

1- بعثة محمد تميم إلى فرنسا سنة (1681-1682م):

أ- التعريف بالسفير:

لم تذكر المصادر التاريخية المغربية، والأجنبية المعلومات الكافية عن الحاج محمد تميم (الأول)، الذي ذاعت شهرته من خلال سفارته إلى باريس التي أوفده إليها المولى إسماعيل حاملاً إلى ملكها لويس الرابع عشر كتاب اعتماده ورسالة إليه، الحاج محمد تميم الملقب "بالأول"، عامل مدينة تطوان ثم سلا في عهد القائد علي بن عبد الله الريفي الحمامي؛ هذا الأخير كان نائباً للسلطان المولى إسماعيل في شمال المغرب، حيث اقترح عليه تعيين محمد تميم سفيرا له إلى البلاط الفرنسي⁽³⁾.

يذكر محمد داود في كتاب تاريخ تيطوان "أنَّ السلطان المولى إسماعيل كان قد أسند حكم جلّ الشمال المغربي إلى القائد علي بن عبد الله،... ونظرا لاتساع الشمال تمّ إسناد الحكم لبعض الأشخاص؛ ليباشروا تحت إشرافه الأحكام المدنية

في بعض المدن⁽⁴⁾، و"محمد تميم الأول" أحد أولئك الحكام المحليين في مدينة تطوان، شغل منصب باشا تطوان، ثم سلا، ثم كأول سفير أرسله جلالة الملك إسماعيل إلى بلاط لويس الرابع عشر⁽⁵⁾.

2- الظروف الممهدة لسفارة محمد تميم:

لم تتمكن فرنسا من حل مشكلة الأسرى بالمغرب، والمرتبطة بالقرصنة خلال فترة حكم مولاي الرشيد⁽⁶⁾ لذلك ستتجدد المساعي الفرنسية، على عهد مولاي إسماعيل، للتوصل إلى حل يرضي الطرفين فيما يخص هذه المسألة، وقد أظهر مولاي إسماعيل تفهما كبيرا⁽⁷⁾ في هذا الصدد، منذ بداية حكمه نظرا للرغبة الأكيدة التي كانت تراوده من أجل تمتين أواصر الصداقة مع فرنسا، خصوصا وهو في حاجة ماسة إلى سند مادي ومعنوي من أجل إقرار الأمن داخل البلاد، وصد الأعداء على الحدود ورفع مكانته وسمعته بين الأمم، وبذلك يتضح لنا أن مصالح فرنسا والمغرب كانت تفرض على لويس الرابع عشر ومولاي إسماعيل العمل على تبييد كل سوء تفاهم بينهما، مستعملين في ذلك الطرق الدبلوماسية من القناصل والسفراء⁽⁸⁾.

أ- رسالة تهنئة من لويس الرابع عشر إلى مولاي إسماعيل:

وسعيا وراء خطاب ود المغرب، ما إن علم نائب القنصل الفرنسي⁽⁹⁾ بسلا السيد "فرانسوا جوليان باراصول" (julien parasol) بوفاة مولاي الرشيد، والإعلان عن أخيه مولاي إسماعيل سلطانا على المغرب، في أفريل 1672م، حتى ذهب لتقديم تهاني فرنسا إلى السلطان الجديد، الذي استقبله استقبالا حسنا ووعدده بضممان حرية التجارة الفرنسية بالمغرب⁽¹⁰⁾.

"...وبعد شهور قليلة وصل مولاي إسماعيل خطاب لويس الرابع عشر،

الذي يهنئه بدوره باعتلائه عرش المغرب، ويشكره على الوعود التي قدمها لصالح



التجارة الفرنسية ببلاده، وعلى الاستعداد الطيب الذي أبداه لحل مسألة الأسرى، وذكر بأن التفاهم كان دائما يخيم على علاقات فرنسا مع أسلافه من ملوك المغرب، وفي الأخير أوصاه خيرا بمبعوثه "صمويل روي (samuel roy) الذي أرسله إليه للتباحث معه في مسألة الأسرى واقترح مبادلتهم..."⁽¹¹⁾. غير أن سفارة "صمويل" هذا لم تتم؛ لأن مولاي إسماعيل لم يقبل بمفاوض له مجرد تاجر بسيط⁽¹²⁾.

ب- قضية القرصنة وتحرير الأسرى الفرنسيين بالمغرب:

استجاب مولاي إسماعيل بالفعل لطلب لويس الرابع عشر المتعلق بالأسرى، فمنح جواز سفر للرجال الذين من هيئة الميرسيدير (mercédaire)⁽¹³⁾، الذين لم يحلوا بالمغرب إلا سنة 1674م، وهو التاريخ الذي توصلوا فيه إلى ترخيص لويس الرابع عشر⁽¹⁴⁾.

غير أن نتائج أخرى سنة 1679م، لم تكن مرضية بالنظر إلى عدد الأسرى الضئيل الذين تم افتدائهم، فاستتبع ذلك إرسال قوات بحرية بأمر من لويس الرابع عشر إلى شاطئ سلا في بداية سنة 1680م⁽¹⁵⁾ بقيادة الملازم "شاطورونو" (château Renaud)⁽¹⁶⁾ التي كان مآلها الفشل.

وهنا نتساءل عما إذا كان هذا التشنج الطارئ في العلاقات بين البلدين، يعزى إلى ما أشيع من خبر مفاده أن لويس الرابع عشر أعدّ خمسين سفينة حربية مسلحة، ترافقها سفن أخرى محملة بالأحجار والجير من أجل بناء حصن بالقصر الصغير ليصبح مكانا صالحا لتجمع القوات الفرنسية في السنة القادمة⁽¹⁷⁾.

والواقع أن لويس الرابع عشر كان يمزج بين الليونة والقوة، فيما يخص سلطان المغرب على حل مشكلة الأسرى الفرنسيين، وجعل حد "للقرصنة المغربية"؛ التي تعرقل حركة التجارة الفرنسية باعتراض السفن المتجهة إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا، والقادمة من نفس المناطق⁽¹⁸⁾.

ومن هذا المنطلق، يتضح سبب التعليمات المرفقة بمشروع إبرام السلم، و الواردة على "شاطو رونو" بضرورة أخذ تصميم لموانئ آسفي وسلا⁽¹⁹⁾، والأوامر التي تلقاها "جان ديستري"⁽²⁰⁾ في شهر أبريل 1680م، ليبحر بسفنه إلى سلا وينضم هناك إلى "شاطو رونو"، حتى يرفع وجود الأسطولين الفرنسيين، السلاويين ويجبرهم على الجنوح إلى السلم، ثم تضيف نفس الأوامر والتعليمات أنه بإمكان "جون ديستري" أن يمدد إقامته، إذا كان هناك أمل في إمكانات إبرام معاهدة⁽²¹⁾، وبذلك يبدو أن فرنسا كانت ترغب في تحقيق السلم مع المغرب.

ومما يزيك هذا الطرح ماجاء في رسالة تحمل تاريخ 12 أوت 1680م، بعث بها "بيير دو كاطالان" (Pierre de Catalan)⁽²²⁾ من قادس إلى "كلوبير" Colbert⁽²³⁾، يخبره فيها أن "شاطو رونو" قد أنزل ضباطا بمصعب تاهدارت⁽²⁴⁾، كلفهم بالذهاب إلى القصر الكبير من أجل التفاوض مع القائد عمر بن حدو⁽²⁵⁾، وإبرام السلم معه، لكن المفاوضات فشلت، وعلى إثر هذا الفشل ظهرت مشاعر عدائية فرنسية ضد المغرب، إذ وردت على لويس الرابع عشر عدة تقارير ومذكرات، تتعلق بالحرب الحاسمة التي يجب القيام بها ضد السلاويين.

ج- معاهدة المعمورة:



توصل "دو لابرار" (De la Barre)؛ مبعوث لويس الرابع عشر إلى إبرام هدنة (اتفاقية المعمورة) مع القائد عمر بن حدو يوم 13 جويلية 1681م، التي تضمنت 16 بندا، ينص البند الرابع منها على تبادل الأسرى بين الطرفين رأسا برأس باستثناء أولئك الذين أسروا منذ شهر ماي⁽²⁶⁾.

وبعد اطلاع لويس الرابع عشر على بنود هذه المعاهدة، لم يرتح لعمل "دولابار"، ومما زاد في غضب الملك الفرنسي تجاه معاهدة المعمورة، مسألة تبادل الأسرى في البند الرابع، فكان رد فعله على أعلى مستوى وقام بتوبيخ "دو لابرار"، كما بعث لويس الرابع عشر في 26 أوت 1681م رسالة إلى "شاطو رونو"، يخبره فيها أنه يرفض التصديق على معاهدة المعمورة، ويأمره بمواصلة الحرب ضد السلاويين حتى يتم القضاء عليهم بصفة نهائية، أو يطلب سلطان المغرب السلم بشروط مقبولة⁽²⁷⁾.

أمام هذه الظروف قرر المولى إسماعيل إرسال سفير إلى فرنسا تمثل في شخص محمد تميم، فإذا كانت الرسالة المذكورة، يضيف مولاي إسماعيل، هي رسالة لويس الرابع عشر حقيقة، فإنه يلبي كل ما ورد فيها وأكثر إذا كان العكس، فما على لويس الرابع عشر إلا أن يفصح عن رغباته للسفير المغربي، وبمجرد عودته مرفوقا بسفير فرنسي أم بدونه، ستتم الاستجابة لكل الرغبات المعبر عنها⁽²⁸⁾.

3- الوفد المكون للبعثة: لم يتمكن المغرب في عهده السابقة من إفادة تمثيله دبلوماسية دائمة إلى الدول التي تربطها به علاقات الصداقة أو المعاهدات، وذلك بسبب ضآلة الإمكانيات المادية، وعدم تأطير الأشخاص للعمل الدبلوماسي من حيث الكفاءة العلمية واللغوية، ولذلك غالباً ما يصاحب السفير المغربي وفد يضم عدداً

من الأشخاص؛ من أجل الترجمة أو تحرير محضر أو كتابة معاهدة إلى اللغة العربية وقد يتخذون شهوداً في الاتفاقيات المبرمة بين البلدين⁽²⁹⁾. وسفارة الحاج محمد تميم على حسب ما ذكر جاك كايي: "كانت تتكون من سبعة أشخاص، أو ثمانية ذكر بعض الأسماء منها: ابن أخ السفير الحاج محمد تميم الثاني، والحاج علي معينو، والحاج عبد القادر قائد سلا"⁽³⁰⁾.

4- الظروف المرافقة لهذه البعثة:

لم يجب لويس الرابع عشر على رسالة مولاي إسماعيل المتعلقة بإرسال سفير مغربي إلى فرنسا فحسب، ولكنه تلقى خبر مجيء مبعوث مغربي إلى باريس باشمئزاز، بل وطلب أن يعاد إلى بلاده⁽³¹⁾، ولم يقبل مجيء هذا السفير إلا بعد أن علم أن عددا مهما من الأسرى السلاويين اقتيدوا إلى مرسيليا ووزعوا على سفنه للعمل بها كمجذفين، "وهذا المكسب في نظر لويس الرابع عشر سيعمل على تغيير بنود معاهدة المعمورة"⁽³²⁾، التي لم تكن في صالح فرنسا بصفة عامة، كما أن ضمانات قدمت للملك الفرنسي حول ميول محمد تميم للفرنسيين وعدائه للإنجليز، الذين كانوا يحكون الدسائس ضد فرنسا في البلاط المغربي، ومن ناحية أخرى، فيما أن السفير المذكور سيصل إلى فرنسا، فإن الأوربيين سيفهمون من ذلك أن مولاي إسماعيل، هو الذي يطلب السلم وهذا ما يحفظ لملك فرنسا كرامته التي اعتقد أنها أهينت في المعمورة⁽³³⁾.

وحتى يزول كل التباس في هذا الصدد، قرر المولى إسماعيل إرسال سفير إلى فرنسا تمثل في شخص محمد تميم، "...فإذا كانت الرسالة المذكورة، يضيف مولاي إسماعيل، هي رسالة لويس الرابع عشر، حقيقة، فإنه يلبي كل ما ورد فيها وأكثر إذا كان العكس، فما على لويس الرابع عشر إلا أن يفصح عن رغباته للسفير المغربي،



وبمجرد عودته مرفوقا بسفير فرنسي أم بدونه، ستم الاستجابة لكل الرغبات المعبر عنها...⁽³⁴⁾

ويلاحظ أنه لم تمض سوى بضعة أيام على كتابة هذه الرسالة، حتى بعث السلطان المغربي برسالة أخرى إلى لويس الرابع عشر يوم 15 سبتمبر 1681م، تتناول موضوعين بعيدين عن السياسة، لكن لهما صلة بالدين الإسلامي، ويتعلق الموضوع الأول بمعرفة ما إذا كان لويس الرابع عشر لا زال يحتفظ بالرسالة التي كان قد أرسلها النبي محمد(ص) إلى هرقل، باعتبار أن الفرنسيين يرجعون في أصلهم إلى ملك الروم⁽³⁵⁾، أما الموضوع الثاني فيتعلق بدعوة لويس الرابع عشر إلى اعتناق الإسلام⁽³⁶⁾. إن المتأمل في الرسالة الأولى ذات الطابع السياسي، والرسالة الثانية ذات الطابع الديني وباعتبار الإيمان القوي الذي كان يغمر قلب مولاي إسماعيل المجاهد في سبيل الله، وباعتباره ينحدر من السلالة النبوية الشريفة، لا يجد أي تناقض بين موضوعي الرسالتين، إذ أن المؤمن الحقيقي لا يجب أن تبعده المسائل الدنيوية كلية عن الأمور الدينية، ومن واجبه أن يسدي النصيح في كل وقت وحين، ولأي كان لما في ذلك من ثواب⁽³⁷⁾.

ومن جهة أخرى، فقد استغل مولاي إسماعيل الظروف الممهدة لربط علاقاته مع فرنسا، لكي يطلع لويس الرابع عشر وهو الملك الفرنسي الذي يلقب بالمسيحي جدا (Le roi très Chrétien)⁽³⁸⁾، على أن تمسك سلطان المغرب بدينه وأصالته لا يساويه أي شيء، وأنّ الدفاع عن حوزة البلاد وسيادتها ضد كل عدو حتى ولو كان لويس الرابع عشر هو مسؤولية دينية ملقاة على كاهل المولى إسماعيل،

الذي يعرف أن شخصية الملك الفرنسي قوية، وبالتالي فإن هذا الأخير لا يمكن أن يتحالف إلا مع من يساويه في هاته القوة⁽³⁹⁾. كل هذه الظروف مهّدت لوجود تمثيلية دبلوماسية مغربية على الأراضي الفرنسية، فما هي مجريات ومظاهر هذه البعثة؟

5- مجريات البعثة:

كانت سفرية "محمد تميم" شاقّة للغاية بسبب مخاطر البحر، وأهوال القرصنة، ومسافة السفر عبر عدّة موانئ، حيث "ركب يوم 21 سبتمبر 1681م من ميناء "تاحدرت"⁽⁴⁰⁾، على ظهر سفينة "دولابار"، وبعد سفر شاق توقفت بمرافأ لشبونة، ثم رست بميناء بريست (Brest)⁽⁴¹⁾ يوم 17 أكتوبر 1681م، وهناك تعرض للمماطلة المقصودة من أجل معرفة سبب قدومه، لكن السفير المغربي رفض إطلاع أي شخص عن مهمته، وعلّل ذلك بأن مهمته أخطر من أن يطّلع عليها مجرد موظفين صغار، وإن كانوا يتصرفون باسم الملك، غير أن محمد تميم وافق في النهاية على أن يطلع "ريموندي" (Raymondis)⁽⁴²⁾؛ الذي كسب ثقته، على أوراقه، وبذلك لم يصل إلى باريس إلا بتاريخ: 30 ديسمبر 1681م من نفس السنة، وهناك تم استقباله ببرودة في غياب أي استقبال رسمي، بأمر من لويس الرابع عشر⁽⁴³⁾.

وفي يوم 4 جانفي 1682م، رافق "بونوي" (Bonneluil)⁽⁴⁴⁾ محمد تميم إلى سان جرمان (Saint Germain) ليقدمه إلى لويس الرابع عشر، وفي مدخل القصر كان الحراس يشكلون سياجا لحماية السفير المغربي⁽⁴⁵⁾، لكنهم كانوا غير مسلحين⁽⁴⁶⁾. استقبل لويس الرابع عشر، محمد تميم في نفس اليوم بقصره بسان جرمان، وبعد أن ألقى السفير المغربي كلمته عبّر خلالها عن فرحته بزيارة فرنسا وملكها، رد على ذلك لويس الرابع عشر، ثم تسلم منه أوراق اعتماده، وفي نهاية الجلسة كلف العاهل الفرنسي كلّاً من الماركيز "دو كرواسي" (Marquis de Croissy)⁽⁴⁷⁾، والماركيز



"دوسينيولاي" (Le Marquis de Seignelay)؛ كاتب الدولة في البحرية، نائبين عنه في التفاوض مع سفير المغرب، ومعرفة اقتراحه فيما يخص معاهدة السلم والتجارة بين فرنسا والمغرب⁽⁴⁸⁾.

أ- المعاهدة المنبثقة عن هذه السفارة (29 جانفي 1682م):

ابتدأت المفاوضات بين الجانبين يوم 5 جانفي 1682م، استمرت ما يقرب من شهر، وخلال هذه المدة توصل الطرفان إلى إبرام معاهدة سان جرمان أون لاي (saint Germain en Laye) يوم 29 جانفي من نفس السنة، وقد تضمنت هذه المعاهدة مقدمة وعشرين بندا. إن المتفحص لبنود معاهدة يوم 29 جانفي 1682م بسان جرمان، يتكون لديه اقتناع بأن جل بنود هذه المعاهدة كانت في صالح فرنسا وحتى يتضح ذلك سنحاول مناقشة بعضها:

- يقضي البند الخامس من المعاهدة بصفة عامة، بأن يدافع المغرب عن السفن التجارية الفرنسية بعرض المياه المغربية، ويحميها إذا تعرضت لاعتداء الجزائريين والتونسيين، أو أي عدو من موانئ إفريقية أخرى، والشئ نفسه ستقوم به فرنسا اتجاه المغرب، أي أن الدفاع عن السفن التجارية للبلدين ضد الأعداء سيكون متبادلا، مما يعني ظاهريا أن الطرفين توصلا إلى إبرام تحالف عسكري بينهما، لكن الواقع شيء آخر إذ يمكن القول إن هذا البند من المعاهدة سيخلف مشاكل كبيرة للمغرب في حالة تطبيقه، باعتبار أن مجاهدي البحر في بلاد المغرب كانوا يستعملون البحر الأبيض المتوسط الغربي دون أي اعتبار للحدود وكان التعاون متبادلا بينهم⁽⁴⁹⁾، يظهر ذلك من رسو السفن المغربية بالموانئ الجزائرية قصد التزود بكل ما

يحتاجونه تمويها وإصلاحا وتجارة، ولذلك كان هدف المفاوضات الفرنسية من هذا البند تفكيك هذه الروابط الأخوية التي تربط بين أبناء العقيدة الواحدة والإقليم الواحد ليرتاحوا بذلك من بطش القراصنة الطرابلسيين والتونسيين، والجزائريين على الخصوص، الذين خاضوا في النصف الثاني من القرن 17م معارك دامية ضد الفرنسيين⁽⁵⁰⁾. "وهذا ما سيخلق مشاكل لمولاي إسماعيل، لأنه إن طبق هذا البند سيصبح بمثابة دركي لفرنسا في الجنوب الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط و المدافع عن مصالحها، في وقت كان يعرف لويس الرابع عشر أن سفنه لن تضطر قط للدفاع عن السفن التجارية المغربية ضد الأعداء، لأن المغرب في هذه الفترة لم يكن يتوفر على أسطول بحري يمكنه من حمل بضائعه إلى الموانئ الأوروبية، كما أن التجارة الخارجية المغربية لم تكن قد حققت من التطور ما يجعلها تغزو أسواق أوروبا. وبما أن المادة السادسة من المعاهدة مرتبطة بالخامسة، فإن الحكم الذي جرى على الأولى يجري على الثانية⁽⁵¹⁾.

- أما البند السابع، فإن أهم ما يمكن ملاحظته فيه، هو أن الفرنسيين فضلوا حل مسألة الأسرى عن طريق الافتداء، بدل التبادل الذي نصت عليه معاهدة المعمورة، وهو عمل مقصود لأنه يحقق رغبة لويس الرابع عشر في الاحتفاظ بالأسرى المغاربة المجذفين، ويضمن تحرير الرعايا الفرنسيين الأسرى بسجون مولاي إسماعيل، علما منه بأن المغاربة الخاضعين للأعمال الشاقة بسفنه، لن يتمكنوا ولا ملكهم من إرسال المبالغ المالية الضرورية لافتدائهم⁽⁵²⁾. وقد ظل هذا البند طيلة عصر مولاي إسماعيل ولويس الرابع عشر من المشاكل العويصة التي حالت دون تحسين العلاقات بين البلدين.



- وجاء البندان التاسع والعاشر ليقضيا بتقديم المساعدة للسفن الفرنسية الغارقة بالشواطئ المغربية لسبب من الأسباب، ولمنح كل التسهيلات للتجار الفرنسيين بأرض المغرب. ومن المعلوم أن هذه الامتيازات كانت أحادية الجانب لأن المغاربة لن يصلوا قط بسفنتهم وتجارهم إلى الموانئ الفرنسية.

- وبموجب البند الثاني عشر، يسمح لإمبراطور فرنسا بتعيين قنصل بسلا وتطوان، أوفي أي مكان آخر يراه مناسبا، وبذلك طرأ تغيير مهم على معاهدة المعمورة فيما يخص مصلحة فرنسا⁽⁵³⁾.

وباستعراضنا لما سبق نستنتج: أن السفير المغربي محمد تميم أبرم معاهدة مع الفرنسيين كانت كل موادها تقريبا في صالح فرنسا، فهل انساق هذا السفير لرغبات الفرنسيين تحت تأثير المناظر الطبيعية والعمرانية والأثرية التي زارها، وحضور الحفلات الفنية وإعجابه بجو باريس طبقا لخطة محكمة أعدتها الفرنسيون للتأثير على ضيفهم ونيل ثقته؟ أم أن محمد تميم لم تكن له شخصية الدبلوماسي المحنك، فصيغت بنود المعاهدة على حساب مصلحة المغرب رغم ما قدمه هذا السفير من اقتراحات لم تؤخذ بعين الاعتبار؟ وهذا ماسنجيب عنه في نتائج هذه السفارة.

6- نتائج بعثة محمد تميم:

- نتائج أغلبها كانت في صالح فرنسا: يمكن الحكم على إيجابية هذه السفارة أو سلبيتها، من خلال مناقشة بعض البنود التي وقع عليها محمد تميم ومقارنتها مع بعض بنود معاهدة "المعمورة"؛ التي كانت أساسا لانطلاق المفاوضات المغربية

الفرنسية على عهد مولاي إسماعيل، مع الانتباه إلى أنّ مفاوضات محمد تميم من الفرنسيين استطاعوا إقناعه على ما يبدو بالانطلاق في المفاوضات على أسس جديدة، لا تأخذ بعين الاعتبار معاهدة 13 جويلية 1681م (المعمورة)، وكانت هذه إحدى النقاط السلبية في هذه السفارة، باعتبار ما كانت تؤكد عليه تلك المعاهدة من حقوق للمغرب خصوصا ما يتعلق بمسألة الأسرى⁽⁵⁴⁾.

- معاملة غير لائقة للسفير المغربي: كانت نتائج سفارة محمد تميم إلى فرنسا سنة 1681-1682م؛ دليلا على عدم حسن نية لويس الرابع عشر فيما يدعيه من وجود رغبة صادقة لديه لإبرام معاهدة للسلم والصدّاقة مع مولاي إسماعيل، ومدى احترامه للمغرب، وتقديره لملكه من خلال معاملة رعاياه (السفراء)، لأن هذه المعاملة ستؤثر على مستقبل العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، إما على مستوى معاملة المغاربة لسفراء فرنسا إلى المغرب، أو على مستوى احترام بنود المعاهدات والمصادقة عليها⁽⁵⁵⁾.

إنّ المعاملة التي خص بها السفير محمد تميم في فرنسا، لم تكن في عمومها تنم عن تقدير الفرنسيين للمغرب وسلطانها، بدليل ما تعرض له هذا السفير من إهمال ومماثلة مقصودين، منذ أن وطئت قدماه ميناء بريست (Brest)، إلى أن غادر فرنسا في اتجاه المغرب، في نهاية شهر مارس من سنة 1682م⁽⁵⁶⁾، وعندما وصل إلى باريس وقبل دخوله إلى فندق المسافرين الذي أعد لسكنى أعضاء السفارة المغربية، لم يلاحظ تخصيص أي استقبال رسمي على شرف محمد تميم⁽⁵⁷⁾، "كما أن الحرس الفرنسي، الذي كان أمام مدخل قصر سان جرمان ساعة وصول السفير المغربي ليستقبله لويس الرابع عشر، لم يكن مسلحا، وهذا للتقليل من شأن السفير محمد تميم"⁽⁵⁸⁾، كذلك المفاوضات الفرنسيان، الماركيز دو كرواسي (de Croissy)



"والماركيز" دو سينيولاي (de seignelay) لم يكلفا نفسيهما عناء مد يديهما لمصافحة السفير المغربي⁽⁵⁹⁾.

غير أن أكبر إهانة وجهت للمغرب في شخص سفيره كانت بمرسيليا، وهي المدينة التي كان ينتظر فيها رؤية الأسرى المغاربة بأغربة⁽⁶⁰⁾ لويس الرابع عشر، ولتحقيق هذا الغرض، غادر محمد تميم باريس في اتجاه مرسيليا يوم 25 فيفري 1682م، إلا أن الأوامر كانت قد صدرت يوم الخامس من نفس الشهر لجان برودار (Brodart)، المكلف بإدارة شؤون السفن بطولون (Toulon)، بضرورة إبعاد المجذفين المغاربة من الأماكن التي سيزورها السفير المغربي بمرسيليا⁽⁶¹⁾.

وفي 6 فيفري ورد تقرير على "كولبير" يفيد أن الأسرى المغاربة تم إبعادهم فعلا إلى مكان آخر⁽⁶²⁾، وعندما وصل محمد تميم إلى مرسيليا يوم 16 مارس، منع بالفعل هو وباقي أعضاء السفارة المرافقين له من رؤية أي مغربي. وفي الوقت الذي كان في طريقه إلى طولون ليبحر من هناك إلى المغرب صدر أمر لقائد السفينة التي تقل الأسرى المغاربة المهربين من مرسيليا، بأن السفير المغربي شاهد كل شيء في فرنسا، باستثناء المغاربة الذين حرموا حتى من الرسالة التي مررها إليهم محمد تميم خلسة⁽⁶³⁾، "ومما يسترعي الانتباه أن لويس الرابع عشر، عند توديعه للسفير المغربي أمر بتقديم بعض الهدايا له ولأعضاء سفارته"⁽⁶⁴⁾.

ومجمل القول: بناء على الظروف التي مرت بها بعثة محمد تميم، والنتائج التي أسفرت عنها من الناحية الموضوعية فهي لم تحقق المطلوب منها، غير أنه من حيث الشكل، وبناء على الرسائل المتبادلة بين لويس الرابع عشر ومولاي إسماعيل،

وتصريحات السفير المغربي نفسه، وبعض المسؤولين المغربية، اعتبرت هذه السفارة ناجحة إلى حد ما.

الببليوغرافيا:

(1) الحاج محمد تميم سفير السلطان المولى إسماعيل إلى باريس سنة 1682م، من خلال رسم محفوظ بالخزانة الوطنية بباريس. على يسار السفير السيد دو رايمونديس de Raymondis وعن يمينه حاكم سلا، ثم الحاج عبد القادر حفيد تميم، والمراكشي حفيد حاكم سلا. انظر: عبد النبي ذاكر: المغرب وأوروبا نظرات متقاطعة، ط2، المغرب 2007، ص33.

(2) أما عن بعثة الحاج محمد تميم المشهورة عام 1682م، فقد احتفظت لنا الصحافة الفرنسية بتقرير مفصل عنها، كما احتفظت لنا الصحافة الفرنسية بتعليق كثيرة عن ذلك العصر. بل لقد وصلتنا لوحة "أنطوان تروفان" (Antoine Trouvain) التي رسمت كتذكار لزيارة السفير، وأصدقائه للمسرح لأول مرة، وكم ستكون المقارنة أكثر خصوبة لو عُثِر على تلك المدونة التي أبدى فيها الحاج محمد تميم شهادته عن فرنسا، والمسماة بـ "كتاب العجائب"، والتي يبدو أن "الأب كودار" (Pierre de Godard) في كتابه "تاريخ المغرب" يعتقد بوجودها". انظر: عبد النبي ذاكر: "الرحلات المغربية إلى أوروبا مدخل ببليوغرافي"، في مجلة المناهل، ع55، مطبعة دار المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية، المغرب 1997، ص41.

(3) محمد الحبيب الخزار: سفراء تطوان على عهد الدولة العلوية، ط1، مطبعة الخليج العربي 152، تطوان، المغرب 2007، ج1، ص21.



(4) محمد داود: مختصر تاريخ تطوان، ط2 ، مطبعة المهديّة، تطوان، المغرب1955م.
ص262.

(5) نفسه.

(6) Penz Charles: Les Captifs français du Maroc (1577-1699), Paris, 1944.
p92.

(7) Henry De Castries, les sources Inédites de L'histoire du Maroc, 1serie,
dynastie Filalienne, Archives bibliothèques de France, T1, éditeur Ernest
leroux, Paris, France1909. p424.

(8) كان للفرنسيين تمثيل قنصلي بالمغرب منذ الربع الأخير من القرن 16م، وعلى العكس
من ذلك لم يكن للمغرب أي قنصل بفرنسا حتى سنة 1656. انظر:
Jacques Caillé : La Représentation diplomatique de la France au Maroc, Institut
des hautes-études marocaines, france1951, p24.

(9) عين أندري برا (André Prat) قنصلا للمغرب سنة 1629، ثم خلفه ابنه هنري برا
(Henry Prat) في نفس المنصب سنة 1648م، وإلى التاريخ الذي نتحدث عنه، غير أنهما كانا
يسيران قنصليّة سلا وتطوان من مقر عملهما بمرسيليا مكثفين بتعيين نواب عنهما
بالمغرب. انظر:

- Henry De Castries: Op.Cite, T2, p512

(10) Ibid, p434.

(11) هذه الخطاب كان مجهولاً في الأصل لكن الوثائق الموجودة في أكس آن بروفانس وضحت ذلك انظر:

- Charles penz: Op.Cite, p52.

(12) في نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلاديين، تأسست هيئتان دينيتان بفرنسا من أجل جمع الأموال الضرورية من تبرعات المحسنين، والميسورين ومن أسر المستعبدين في مختلف سجون الدول الإسلامية، وبحوض البحر الأبيض المتوسط على الخصوص سعياً وراء افتداء الأسرى بهاته الدول، نشأت هيئة الثالوثيين (Trinities) أو الماتوريين نسبة إلى أحد مؤسسيها جان دو ماطا (Jean de Matha) سنة 1198م، وتأسست هيئة المرسيدير أو آباء الرحمة (les Mercedaires) سنة 1218م. أنظر:

- Ibid, pp57,76.

(13)Ibid, p76 .

(14) le per Dan: Op.Cite p335.

(15) Ibid.

(16) Gerain Mouette: Histoire des conquêtes de Moulay Ismail ,Paris 1983, p375.

(17) Paul Masson: Histoir des etablissements et du commerce Français dans l'Afrique Barbaresque (1560-1793), Paris 1903, p206.

(18) Ibid.

(19) Henry De Castries: Op.Cite, T1, p480.



(20) أصبح نائب أميرال منذ سنة 1669م، ثم مارشال في البحرية سنة 1681م، ليرتقي إلى نائب الملك بأمريكا، انظر: Ibid, p284.

(21) Ibid, p487.

(22) قنصل فرنسا بقادس، انظر:

- Ibid, p298.

(23) مستشار لويس الرابع عشر وأمين ماليته والمكلف بالشؤون البحرية.

(24) نهر يصب في المحيط الأطلسي بين رأس سبارطيل وأصيلا يبعد بحوالي خمسة أو ستة فراسخ عن مدينة القصر الكبير مقر القائد عمر بن حدو. انظر: محمد حجي: المرجع السابق (معلمة المغرب)، ص189.

(25) عمر بن حدو ا لحمامي قائد القصر الكبير ونائب السلطان على الغرب والمكلف بقيادة طنجة. انظر: محمد حبيب الخراز: المرجع السابق، ص28.

(26) عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم، 10ج، مطابع فضالة، المحمدية، ج9، المغرب1988. ص71.

(27) نفسه.

(28) Henry De Castries: Op.Cite p567-570.

(29) محمد حبيب الخراز: المرجع السابق، ص24.

(30) نفسه.

(31) Henry De Castries: Op.Cite, T1, p564.

(32) Charles penz: Op.Cite, p100-101.

(33) من هذه الدسائس، ما روجه الإنجليز عن نوايا الفرنسيين في احتلال طنجة. انظر:

-Henry De Castries: Op.Cite, p378.

(34) Ibid, p567-570.

(35) يخاطب مولاي إسماعيل لويس الرابع عشر في رسائله تارة بالإمبراطور ملك الرومان والفرنسيين، وتارة أخرى بملك فرنسا وامبراطور الرومان، ويفسر هذا الخطأ حسب البعض بما أورده ابن خلدون من كون العرب في عهد النبي محمد (ص) لم يكونوا يعرفون الإفرنج Les Francs، ولم يكونوا يحاربون غير الروم ببلاد الشام، وكانوا يتصورون أن هذه الأمة كانت تحكم كل الشعوب المسيحية، وأن هرقل كان ملك كل المسيحيين، انظر:

- Henry De Castries: Op.Cite, p567.

(36) Ibid, p p 571-573.

(37) وجه مولاي إسماعيل دعوته لاعتناق الإسلام إلى جيمس الثاني، وإلى الكثير من السفراء والمسيحيين الذين زاروا المغرب.

(38) للمزيد من المعلومات حول شخصية الملك. أنظر غازي مختار طليمات: الوجيز في تاريخ الحضارة، ط1، دار طلاس للدراسات والنشر، بيروت، لبنان 2000، ص 17.

(39) هناك من يعيب على مولاي إسماعيل هذا التصرف، ويرى فيه تصرفا ساذجا وغير حكيم. انظر:

- Charles penz: Op.Cite, p99.



(40) يقع هذا الميناء في شمال المغرب، وهو بمثابة الميناء الرئيسي لمدينة تيطوان. انظر: محمد داود: المصدر السابق، ص 66.

(41) يوجد هذا الميناء في الشمال الغربي لفرنسا، يشبه جزيرة بريطاني انظر:

- Ibid, p593.

(42) رجل في بحرية الشرق برتبة ماجور، والمكلف بمرافقة السفير المغربي. انظر:

Ibid, p590.-

(43) Charles penz: Op.Cite, p 109-120.

(44) هو الشخص المكلف بتقديم السفراء إلى لويس الرابع عشر. انظر:

Henry De Castries: Op.Cite, p633. -

(45) Charles penz: Op.Cite.

(46) إنَّ سوء المعاملة التي تعرض لها محمد تميم سوف تنعكس على السفراء الفرنسيين

الموفدين إلى المغرب الذين سيعاملون بالمثل.

(47) هو الأخ الثاني لكولبير، شغل مهمة كاتب الدولة في الشؤون الخارجية بفرنسا من سنة

1679 م إلى 1696 م. انظر:

Henry De Castries: Op.Cite, T2, p202.

(48) أنظر معاهدة السلم والتجارة بين المغرب وفرنسا في ملاحق الرسالة.

(49) Henry De Castries: Op.Cite, p395.

(50) De Grammont: Op.Cite, pp 214 – 217.

- Eugène Plantet: Op.Cite ,Correspondence, T1, pp 59-60.

(51) أحمد الأزمي: المرجع السابق، ص 18.

(52) Charles Penz, Op.Cite, p120.

Ibid, p122. (53)

(54) يمكن الاطلاع على بنود هذه المعاهدة في :

- Henry De Castries: Op.Cite, T1, p555-584.

(55) أحمد الأزمي: المرجع السابق، ص 27.

Ibid, pp176-177. (56)

. Ibid (57)

(58) أحمد الأزمي: المرجع السابق، ص 28.

(59) Henry De Castries: Op.Cite, T1, p161.

- هذا الموقف أثار حفيظة السفير، خاصة أنه صادر من رجال يشغلون أعلى مناصب في الدبلوماسية الفرنسية.

(60) Ibid, T3, p332 -338.

(61) Ibid.

(62) Ibid, p481.

(63) لأن لويس الرابع عشر ووزراؤه اكتفوا بتكليف "إستيل" بالتفاوض مع مولاي إسماعيل في كل ما يهم الدبلوماسية الفرنسية؛ أي أنهم أعطوه كامل الصلاحيات.

(64) Ibid, T3, p412.